

هل يمكن البرهنة على وجود الواقع الموضوعي؟

يحيى محمد

يعتقد الكثير بأن من الممكن اثبات الواقع الموضوعي العام من خلال الدليل الاستقرائي، فلو ثبت بهذا الدليل وجود بعض القضايا المحسوسة في الخارج؛ لدلّ في حد ذاته على وجود واقع مجمل منفصل عنا. لكن هذه الطريقة تتنافى مع حقيقة وجود احتمال يستحيل نفيه بأي دليل كان، سواء من حيث العقل أو الاستقراء، وهو إفتراض ان تكون الحياة عبارة عن حلم دائم لا ينتهي. وعلى حد تعبير بعض المفكرين: << لو أنني فقط أستطيع أن أخرج من رأسي لرأيت ما إذا كان هناك شيء >>.

لا يقال ان الحلم يختلف عن الواقع من جهة افتقاره للانسجام والاتساق والوضوح، وذلك لأن من الأحلام ما يحمل مثل هذه الصفات التي يمتاز بها الواقع. بل من الناحية المنطقية ليس هناك ما يمنع إفتراض كون واقعنا عبارة عن حلم متسق طويل يتضمن أحلاماً متقطعة تتصف بكلا الحالين من الاتساق وعدمه.

فتصور حالك وانت في حالة المنام كيف تتعامل مع الأشياء وكأنها حقائق موضوعية خارجية، وربما تسأل نفسك - وانت في المنام - عن حقيقة الأمر إن كان حلماً أو واقعاً، وقد تجيب عن ذلك بأنه واقع، بدليل كذا وكذا.. ولكن سرعان ما يتبدد هذا الظن حيث تفاجأ بحقيقة أخرى منافية، وتشعر بأن ما جرى عليك ليس إلا رؤيا في المنام. وربما تشعر بحالك ولا تدري إن كنت في حلم أو واقع. كما قد تشك في امرك وانت في اليقظة حين المفاجآت، وتخشى ان يكون حلماً إن كانت سارة، أو تتمنى ان تكون حالماً إن كانت المفاجآت تبعث على الحزن والاسى. وقد تطرأ عليك حالة ربما تتوهم انك في حلم لا واقع، ولو افترضنا استمرار هذه الحالة لكنت تظن انك هائم في عالم الرؤيا، ويصبح حالك حال من يحلم ويتوهم انه يقظان!

إذاً الدليل الذي يستهدف إثبات الوقائع الجزئية لا ينجح ما لم يفترض سلفاً الاعتقاد بالواقع المجمل العام. وقد حاول المفكر الصدر في (الأسس المنطقية للاستقراء) أن يثبت الواقع المجمل عبر تقديم عدد من الأدلة التي تعتمد على التمايز في الاتساق والنظام بين الواقع والحالة الذاتية، فهو ينمي القيمة الإحتمالية للواقع عبر لحاظ الثبات الذي يمكن تفسيره بقوة تبعاً للواقع مقارنة بالحالة الذاتية، أو عبر ما نتحسس به من نسق وانتظام في إقتران حادثتين مع بعض. لكن تظل هذه التنمية تفترض بعض القضايا المصادرة سلفاً ليتم نجاحها. وإذا كنا لا نميز عادة بين اليقظة والمنام إلا من هذه الناحية، فإن ذلك - في حد ذاته - لا يدل على إثبات

الوقائع الجزئية. فقد يفترض البعض عكس ما نريد إثباته، وهو ان ما نراه مناماً يراه واقعاً، وما نراه واقعاً يراه مناماً، وان الثبات والاتساق الملحوظ هو ثبات واتساق في المنام لا الواقع. فهذا الافتراض لا يمكن الاستدلال على نفيه أو ضده، كذلك لا يمكن الاستدلال على نفي الافتراض الذي يرى ان كلاً من الاتساق وعدمه هما من حالات الرؤيا الدائمة، وبالتالي فإن التمييز بين ما يعد من عالم الرؤيا وما يعد من عالم اليقظة لا يفيد في المسألة المطروحة. بل وان الطريق الذي اتخذه المفكر الصادر في إثبات الواقع المجمل عبر الوقائع الجزئية هو طريق غير صحيح، ذلك لأن هذه الأخيرة لا تثبت ما لم يفترض الأول سلفاً.

هكذا فإعتقادنا بوجود الواقع الموضوعي مفعم بآثار الانطباعات النفسية، فنحن نجده اطول مدة واشد اتساقاً ووضوحاً من الحلم. وقد لفتت هذه المشكلة انظار الكثير من المفكرين، القدماء منهم والمحدثين. وهناك فقرة مفعمة بالشك استشهد بها بعض مفكري الصين القدماء كالتالي:

«لقد حلم تشوانغ تسو (369) - 286 ق.م (ذات يوم بأنه كان فراشة تحوم طائرة، هنا وهناك، كما لو كانت حقاً فراشة واعية في اتباعها لميولها. هذه الفراشة كانت تجهل أنها كانت تشوانغ تسو. وفجأة استيقظت، ومنذ ذلك أصبح بديهياً بأنها كانت تشوانغ تسو. ولكنه لا يعرف الان إذا كان تشوانغ تسو هو الذي حلم بأنه صار فراشة أو ان الفراشة قد حلمت بأنها أصبحت تشوانغ تسو»..»

وكان باسكال يرى انه ليس بوسع الإنسان ان يعرف إن كان في حلم أو يقظة، طالما ان ما يحدث في الحلم من احساس هو مثل الذي يحدث في اليقظة، وبالتالي لا مانع من أن نكون في حلم لا نستيقظ منه إلا عند الموت. كذلك كان برتراند رسل لا يرى مانعاً من افتراض اننا في حلم دائم، إذ يقول: «انا لا اعتقد باني الان احلم أو غير يقظ، لكن في الوقت ذاته ليس بوسعي ان اثبت انني لست حالماً. فانا على يقين تماماً باني احمل خبرات معينة، لكن لا اعلم إن كانت عبارة عن تلك التي تعود إلى الحلم أو انها تعود إلى اليقظة»..»

وقد كان فيلسوف المثالية جورج باركلي يقول: «فما يحدث في الأحلام يدل على أن من الممكن أن نتأثر بجميع الافكار التي لدينا الان دون أن تكون هناك اجسام تشابهها. وعلى ذلك فمن الواضح ان افتراض الاجسام الخارجية ليس ضرورياً لاحداث افكارنا، مادام من المعترف به ان هذه الافكار قد تحدث أحياناً وربما كانت تحدث دائماً، بنفس الترتيب الذي نراه به حالياً، دون وجود الاجسام الخارجية».. وكان العالم الفيزيائي هلمولتز يقول: «لست أدري كيف يتم تنفيذ المذهب المثالي الذي يذهب إلى حد القول أن الحياة لا تنطوي إلا على احلام»..»

كما ظهر على هذه الشاكلة من يرى باننا لا نعرف على وجه الحقيقة ان كنا حقيقيين ام نسخاً ممثلة داخل حاسوب عملاق، كما عبر عن ذلك الفيزيائي الرياضي فرانك تيلر. بل لقد استنتج الفيلسوف نيك بوستروم باننا ممثلين لحاسوب ضخم، وان هناك اكوناً ملفقة تمثيلية ضمن حاسوب عملاق، وبالتالي فنحن نعيش وهماً عندما نتصور الأشياء حقيقية.

بل وذهب البعض بأنه لا يمكن نقض ادعاء كون العالم مخلوقاً قبل خمس دقائق فقط. فالحاضر حقيقي، لكن الماضي ملفق، إذ يعتمد على ذكريات لا يعرف مصدرها ان كان ذاتياً ام موضوعياً.

لكن يمكن أن يجاب على الافتراض الأخير باننا إذا كنا قد سلمنا بوجود العالم الحاضر، فسيشكل ذلك ركيزة للبناء الإستقرائي لمعرفة تاريخ العالم قبل خمس دقائق حسب المثال. فلو وجدت

في نفسي - مثلاً - ذكريات قديمة مع صديق لي، ففي هذه الحالة يمكنني ترجيح موضوعية هذه الذكريات إذا ما أكدها معي هذا الصديق، وهكذا مع بقية الناس. ولو فرضنا انه ليس في العالم غيري من بشر، ففي هذه الحالة يمكنني ايضاً معرفة موضوعية ذكرياتي السابقة من خلال فعل التنبؤ بما يتسق معها. فلو ان ذاكرتي اخبرتني بانني كنت جالساً في مكان معين قبل أيام وهو يتصف بمواصفات محددة، ففي هذه الحالة يمكنني اختبار وجود هكذا مكان لأعرف من خلاله حقيقة ما تتنبأ به ذاكرتي.. وبحسب ذكرياتي ايضاً ان برتراند رسل هو من طرح هذا

الاشكال المفترض في كتاب له بالانجليزية بعنوان المعرفة الانسانية وقد نُشر عام (1948). فهذه هي ذكرياتي عن الكتاب ومؤلفه والموضوع الذي نحن بصدده، وقد يكفي التحقيق في ذكرياتي من خلال البحث عن هذا العنوان ومؤلفه واللغة المدونة ليؤكد لي القسم الاعظم والأهم من هذه الذكريات، ومن ثم البحث عن خصوصية المسألة لأرى ان كانت ذات مصداقية حقيقية أو انها وهمية.

ومن منطلق صوفي اعتبر محي الدين بن عربي ان الحياة الدنيا محض منام، وانها جعلت عبرة أو جسراً يعبر منها الإنسان كما يتم العبور من الرؤيا التي يراها النائم إلى ما تعنيه في عالم اليقظة كالذي تنص عليه الآية الكريمة

((يا أيها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون))، واستشهد على ذلك بالحديث النبوي: ((الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)). وان تفسيره لخلق السماوات والارض جاء على نحو احتجاب الحق في الخلق، أي ففي هذه الدنيا قد خفي عنا الحق باحتجابه في الخلق. الأمر الذي يتسق مع اعتقاده بأن إدراكنا لا تسعنا في مشاهدة الحق على ما هو عليه، وهو المقصود من كوننا نياماً لا نرى الحقائق كما هي. وقد صور لنا ذلك بمنزل ما يحدث في إدراك الشملة الجولة، حيث تحدث في عين الراي دائرة، ومع ان ما يصره الراي هو هذه الدائرة التارية، إلا ان من المعلوم كونها غير موجودة، فالدائرة المرئية ليست بدائرة حقيقة، وذلك عين الصورة المخلوقة الظاهرة لإدراك العين، فيحكم عليها بأنها خلق، وبالعالم والكشف يظهر انها حق مخلوق به، أما ما يظهر للعين فهو عدم في عين وجود.

ويعد ديكارت من أبرز الذين اعترفوا بعجزهم عن ايجاد السبيل للإستدلال على الواقع الموضوعي، الأمر الذي اضطره إلى الاستعانة بالثقة بالله المدبر، فاعتبر يقينه الذاتي بالله كافياً للإطمئنان بواقعية العالم الخارجي، بعد ان يأس من التمييز بين عالمي اليقظة والرؤيا. فحاله حال الامام الغزالي الذي انتهى به الإعتقاد والتسليم بأن هناك ما هو فوق الدليل والعقل، وهو الثقة بالله تعالى، فهو القائل: << من ظن ان الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة >>.

هكذا نرى ان الإستدلال على الواقع الموضوعي مستحيل، رغم اننا على يقين به وجداناً، مثلما نكون على يقين من ضرورة بعض المبادئ العقلية غير المنطقية؛ كمبدأ السببية العامة، وكون الشيء الواحد لا يمكن أن يكون في أكثر من مكان في الوقت نفسه، أو ان يكون شيئان في ذات المكان الواحد في الان نفسه، إذ ليس لدينا من الدليل ما يؤكد هذه القضايا غير الشعور والكشف. إلا ان مثل هذه المبادئ تختلف عن مسألة واقعية العالم، فنحن نستمد يقيننا من الأولى بضرورتها الوجدانية، في حين ليس هناك احساس بضرورة تلك المسألة، فلا مانع عقلياً من أن تكون حقيقة الأمر خلاف ما نتحسس به وجداناً، رغم أن شعورنا الذاتي لا يحتمل هذا المعنى. ونحمد الله على هذه الالفة والغريزة التي لم تدع مجالاً لعقول الناس ان يبتثوا فيها روح

التردد والتشكيك، أو ان يعاملوها على مستوى ما يعاملون به القضايا الأخرى. ولو فعل بعضهم ذلك لارتد خاسئاً وهو حسير!

¹ نشير إلى ان استخدام لفظة (حلم) وما شاكلها قد تثير الالتباس، ومن ذلك انها اوهمت عدداً من المفكرين، منهم الاستاذ فؤاد زكريا الذي اعتبر الاعتقاد بالحلم هو في حد ذاته كاشف عن الواقع الموضوعي الذي يقابله، وان القول بالحلم الدائم متناقض ومستحيل فلسفياً، حيث ذكر في مقدمته لكتاب (نشأة الفلسفة العلمية، ص (9 يقول) >: ان الاعتقاد بأن الحلم أو الوهم أو خداع المعرفة شامل هو اعتقاد متناقض مع نفسه، وهو مستحيل فلسفياً، لأن الحلم لا يعرف بوصفه حلماً إلا لوجود واقع في مقابله، ولأن الخداع لا يكون خداعاً إلا لاننا نقيسه على أساس معرفة صحيحة لا بد أن تكون موجودة إلى جانبه >>. مع ان الصحيح هو ان لفظة (حلم) وغيرها من الالفاظ إنما ترد لتقريب المعنى، لذا يكفي تعبيراً عن المقصود استخدام لفظة (الصور الذاتية) (في قبال الوقائع الخارجية، فتحدث كما يتحدث فلاسفة المثالية عن الافكار من دون موضوعات، فاين هو التناقض؟ واين هي الاستحالة الفلسفية يا ترى؟!

² الأسس المنطقية للإستقراء 454. 462.

³ البان. ج. ويدجيري: المذاهب الكبرى في التاريخ، ترجمة ذوقان قرقوط، الطبعة الأولى، ص. 18.

⁴ Russell; 1948; p.186.

⁵ فؤاد زكريا: نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، ص. 175.

⁶ 181.

⁷ بول ديفيز: التدبير الالهي.

⁸ بول ديفيز: الجائزة الكونية الكبرى، ترجمة محمد فتحي خضر، مراجعة حسام بيومي محمود، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى.

⁹ .

¹⁰ .

¹¹ 43./

¹² ابن عربي: الفتوحات المكية، دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1418 هـ - 1998 م، ج 1، ص 296. وابو العلا عفيفي: فصوص الحكم والتعليقات عليه، دار احياء الكتب العربية،

1365هـ - 1946م، ج 1، الفصل التاسع اليوسفي، ص.101

13
836. 1
.

14
:
88. 1956